Journal of Al-Farabi for Humanity Sciences Volume (9) Issue (5) 31May (2026)

ISSN: 2957-3874 (Print)
Journal of Al-Farabi for Humanity Sciences (JFHS)
https://iasj.rdd.edu.iq/journals/journal/view/95
مجلة الفارابي للعلوم الإنسانية تصدرها جامعة الفارابي

جهود الطاهر بن عاشور في الرد على شبهات النصارى

م. د. محمد مصلح مهدي المحمدي
ديوان الوقف السني بغداد

Taher ibn Ashur's efforts to respond to the Christians' doubts

Dr. Mohammad Muslih Mahdi Al-Muhammadi
Sunny Endowment - Baghdad

الملخص

إن من المعلوم لكل متابع أن النصارى يستدلون على باطلهم بالقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ويدعمون ذلك بكلام ينقلونه من كتب أهل التفسير وعلماء الإسلام، وهي محاولة للنيل من كتاب الله تعالى والطعن في آياته بالتناقض والتعارض، فقد سبق من هذا كثير، وجميع من فعل ذلك باء بالخسران المبين، ولو كان كتابنا الذي آمنّا بأنه منزَّل من عند ربنا تعالى فيه بعض ما في كتب النصارى من التحريف والتعارض والتناقض لكنّا أول الكافرين به، ولكن أنَّى له ذلك وقد تكفَّل الله تعالى بحفظ كتابه الكريم إلى قيام الساعة ليكون حجة على الناس.وقد تلخص العمل في هذا البحث بالتعريف بابن عاشور وبتفسيره التحرير والتنوير، ثم بعد ذلك التعريف ببعض الشبهات وما لها من مدلول، وألقيت الضوء على شيء من جهود أعداء الدين في إثارة الشبهات على ثوابت المسلمين ومعتقداتهم وبخاصة النصارى، لأن ذلك من صميم البحث، ثم نقلت كلام ابن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير على الآيات الكريمات التي فيها رد على شبهة من شبه النصارى، أو إبطال قول خاطئ لهم، أو زعم كاذب، وحرصت أن أنتقي من جملة كلامه ما له علاقة بالبحث، وهو الرد على شبهات النصارى التي أثاروها على أنفسهم أو تلك التي صدروها إلى الإسلام والمسلمين. وتم الاعتماد في هذا البحث على المنهج الاستقرائي والتحليلي، لتبين منهج ابن عاشور في دحض الشبهات، وسنقتصر على بعض الشبهات التي أثارها النصارى. وكان من أهم نتائج الدراسة هي: إن في ردود ابن عاشور على شبهات النصارى سعة اطلاعه على كتب أهل الكتاب، وإني لأظن أنه يحفظها عن ظهر قلب، فكثيراً ما يورد نصوصا من الأناجيل المختلفة مستخدما إياها للرد عليهم وتبيين تحريفهم وتزييفهم للحقائق. كما وأوصت الدراسة بتوصيات مهمة منها: على الباحثين اختيار موضوعات لبحوثهم من خلال تفسير (التَّحرير والتَّنوير) فهناك الكثير من الموضوعات التي تحتاج إلى بحث وتحقيق في مجال التفسير وعلوم القرآن.**الكلمات المفتاحية: الجهود، الشبهات، التحرير والتنوير**

Abstract

It is known to every follower that Christians prove their falsehood by citing the Holy Quran and the pure Prophetic Sunnah, and they support that with words they quote from the books of the people of interpretation and the scholars of Islam. This is an attempt to undermine the Book of Allah Almighty and to attack its verses with contradiction and inconsistency. Much of this has happened before, and everyone who does that will suffer clear loss. If our book, which we believe was revealed by our Lord Almighty, had some of the distortions, inconsistencies and contradictions in the books of the Christians, we would have been the first to disbelieve in it. But how could that be, when Allah Almighty has guaranteed the preservation of His Noble Book until the Day of Resurrection, so that it will be a proof against the people.The work in this research has been summarized by introducing Ibn Ashur and his interpretation, At-Tahrir & At-Tanwir, then after that, defining some of the doubts and their significance, and I shed light on some of the efforts of the enemies of religion in raising doubts about the constants and beliefs of Muslims, especially Christians, because that is the core of the research. Then I transferred the words of Ibn Ashur in his interpretation, At-Tahrir & At-Tanwir, about the noble verses in which there is a response to a doubt from the doubts of the Christians, or the refutation of a false statement of theirs, or a false claim, and I was careful to select from the totality of his words what is related to the research, which is the response to the doubts of the Christians that they raised against themselves or those that they issued to Islam and Muslims.This research relied on the inductive and analytical approach, to demonstrate Ibn Ashour's

approach to refuting doubts. We will limit ourselves to some of the doubts raised by Christians. The most important results of the study were: Ibn Ashour's responses to the doubts of the Christians demonstrate his extensive knowledge of the books of the People of the Book, and I believe that he memorized them by heart, as he often cites texts from the various Gospels, using them to respond to them and demonstrate their distortion and falsification of the facts. The study also made important recommendations, including: Researchers should choose topics for their research through the interpretation of (Al-Tahrir & Al-Tanwir), as there are many topics that need research and investigation in the field of interpretation and Quranic sciences.

Keywords: Efforts, suspicions, At-Tahrir & At-Tanwir

المقدمة

بسم الله الحنان المنان، بسم الله بديع السموٰات والأرض ذو الجلال والإكرام، الحمد لله حمدًا كثيرًا مباركًا فيه ملئ السموٰات والأرض وملئ ما بينهما من شيء بعد، نحمد الله ونشكره ونؤمن أنه هو الواحد الأحد. وأن سيدنا محمد عبده ورسوله، ونعوذ بالله من أن نضل أو نضل ونعوذ بالله من الخطأ والنسيان. أما بعد نقدم الآن بين أيديكم هذا البحث بعنوان " **جهود الطاهر بن عاشور في الرد على شبهات النصار** " وسنتحدث فيه عن جهوده في كيفية الرد على شبهات النصار من خلال تفسير التحرير والتنوير، والذي هو من أجل ما أُلف في باب التفسيرِ وخصوصاً في هذه القرون المتأخرة ما كتبه العلامة البارع الشيخ محمد الطاهرِ ابن عاشور (رحمه الله) ومن وفق للاطلاع على هذا التفسير لا يشك بقيمة هذا الكتاب، وعلو شأن صاحبه، لما في طياته ما نحتاجه في وقتنا الحاضر.إن من أعظم نعم الله على هذه الأمة أن جعل القرآن الكريم لها كتاباً، وارتضى الإسلام لها ديناً، واختار النبي الأمي الأمين محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم) لها رسولاً، فختم بهذا الكتاب كل الكتب، ونسخ بهذا الدين كل دين مضىٰ، فكان نبينا عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم خاتم النبيين والمرسلين. كما إن من المعلوم لكل متابع أن النصارى يستدلون على باطلهم بالقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ويدعمون ذلك بكلام ينقلونه من كتب أهل التفسير وعلماء الإسلام، وهي محاولة للنيل من كتاب الله تعالى والطعن في آياته بالتناقض والتعارض، فقد سبق من هذا كثير، وجميع من فعل ذلك باء بالخسران المبين، ولو كان كتابنا الذي آمنّا بأنه منزَّل من عند ربنا تعالىٰ فيه بعض ما في كتب النصارى من التحريف والتعارض والتناقض لكنّا أول الكافرين به، ولكن أنَّىٰ له ذلك وقد تكفَّل الله تعالىٰ بحفظ كتابه الكريم إلى قيام الساعة ليكون حجة على الناس بما فيه من حق وصدق، قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾ (١). لذا ارتأيت تحت هذا العنوان أن أقدم بحثاً يستوعبه عامة القراء من المسلمين والذين يستهدفهم النصارىٰ.وقد تلخص عملي في هذا البحث بالتعريف بابن عاشور وبتفسيره التحرير والتنوير، ثم بعد ذلك التعريف ببعض الشبهات وما لها من مدلول، وألقيت الضوء على شيء من جهود أعداء الدين في إثارة الشبهات على ثوابت المسلمين ومعتقداتهم وبخاصة النصارى، لأن ذلك من صميم البحث، ثم نقلت كلام ابن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير على الآيات الكريمات التي فيها رد على شبهة من شبه النصارى، أو إبطال قول خاطئ لهم، أو زعم كاذب، وحرصت أن أنتقي من جملة كلامه ما له علاقة بالبحث، وهو الرد على شبهات النصارى التي أثاروها على أنفسهم أو تلك التي صدروها إلى الإسلام والمسلمين.واسأل الله أن يجعله علماً نافعاً وعملاً صالحاً متقبلاً، والحمد لله والشكر لله أولا وآخراً وظاهراً وباطناً على نعمه وآلائه وفضله وحفظه، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

مشكلة البحث

إن الطاقة التي بذلها ابن عاشور (رحمه الله) في حماية القرآن الكريم من الشبهات والطعون المثارة حوله، والانتصار له والذب عنه بتفنيد هذه الشبهات وإبطالها والرد عليها، تلخصت بجهود هذا الإمام في خدمة الإسلام والمسلمين من خلال البحث والتنقيب في مؤلفاته والتي من أهمها تفسيره التحرير والتنوير، حيث نقلت منه الردّ على بعض الشبهات التي أثارها النصارى بغية النيل من كتاب الله عز وجل، ويكون النقل بالنَّص من غير زيادة ولا نقص، إلا ما كان زائداً عن المطلوب، وعند النظر إلى الشبهات المثارة حول القرآن الكريم، وطريقة الطاهر ابن عاشور في الرد عليها وإبطالها، تثار التساؤلات: من هو العلامة ابن عاشور؟ وما هو تفسير التحرير والتنوير؟ وما هي الشبهات؟ وما هي الجهود التي بذلت من قبل الطاهر بن عاشور من خلال تفسير التحرير والتنوير في تفنيد بعض الشبهات التي أثارها النصارى؟

أهمية البحث

لا يخفى على كل مسلم ما يتعرض له ديننا الحنيف من مؤامرات ودسائس وشبهات تُلقى على هذا الدين، فكان لا بد من الرد على هذه الشبهات من خلال تفاسير القرآن الكريم، حيث إن لها أهمية كبرىٰ في مقاصد الشريعة الإسلامية من خلال تفسير الآيات القرآنية، وتسعى لربطها بواقع الأمة ومشاكلها، مع التركيز على الهداية والإرشاد، وكان اعتمادنا في هذا البحث على تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور، لأنه يمثل

تجديداً في الدراسات التفسيرية، حيث يبتعد عن الاعتماد الكلي على التراث التفسيري السابق، ويقدم آراء جديدة مبنية على البحث والتحليل. ويراعي المستجدات العلمية والاجتماعية في عصره، ويسعى لتفسير القرآن الكريم في ضوء هذه المستجدات، مما يجعله تفسيراً عصرياً.

هدف البحث

يهدف البحث إلى إضافة قيمة للدراسات القرآنية، حيث يقدم قراءة متجددة ومنهجية للقرآن الكريم، فيعتبر تفسير التحرير والتنوير مرجعاً أساسياً للباحثين وطلاب العلم في مجال الدراسات القرآنية، وله تأثير كبير على الدراسات التفسيرية المعاصرة لتركيزه على الجوانب البلاغية والمقاصد الشرعية، وتوجيه القراءات الخاطئة، وتقديم فهم أعمق وأدق لمعاني القرآن.

الدراسات السابقة

إنَّ هذا العنوان الذي قمتُ باختيارهِ يعتبرُ جديداً في موضوعه، حيث بحثت في كل المؤلفاتِ التي أُلفت عن العلاَّمة ابن عاشور وخصوصاً ما يخص العنوان المسمىٰ: جهود الطاهر بن عاشور في الرد على شبهات النصارى من خلال تفسير التحرير والتنوير، فوجدت من الدراسات ما يلي:الدراسة الاولىٰ: جهود الإمام الطاهر ابن عاشور في الرد على شبهات النصارى من خلال تفسيره التحرير والتنوير، وهذا الكتاب من كتب المستودع بموقع المكتبة الشاملة، وأصل هذا الكتاب بحث تكميلي لنيلِ درجة (الماجستير) في قسمِ التفسير وعلوم القرآن، كلية العلوم الإسلامية، جامعة المدينة العالمية، دولة ماليزيا، الباحث: جابر بن عبد الرحمن بن محمد العتيق، وناقش في الرسالة قضية التثليث، وشبهة اتخاذ الولد، وشبهة اللمز بقبلة المسلمين، وغيرها من الشبهات.الدراسة الثانية: منهج ابن عاشور في الرد على شبهات اليهود من خلال تفسيره التحرير والتنوير، الباحث: جيلالي بو تمرة، مجلة الإحياء، المجلد: ٢٢، العدد: ٣١، ٢٠٢٢م، وهو بحث اعتنى ببيان منهج ابن عاشور (رحمه الله) في دحض تلك الشبهات التي ألقاها اليهود وقام بالرد عليها، فخرجت ردوده على قدر كبير من الإجادة والإتقان، وتمّ تحقيق المقصود منها، في إجهاض كل شبهة والقضاء على كل أثر لها.الدراسة الثالثة: جهود الإمام ابن عاشور في الدفاع عن القرآن الكريم ومنهجه في عرض الشبهات من خلال تفسيره التحرير والتنوير، الباحثة: تهاني بنت سالم أحمد باحويرث، مجلة جامعة الملك عبد العزيز، الآداب والعلوم الإنسانية، المجلد: ٣٢، العدد: ٣، ٢٠٢٤م، وهو بحث اهتم ببيان جهود ابن عاشور (رحمه الله) في الدفاع عن مصدرية القرآن الكريم وموثوقية النص وصحة المصحف.

منهج البحث

سنعتمد على المنهج الاستقرائي والتحليلي، لتبين منهج ابن عاشور في دحض الشبهات، وسنقتصر على بعض الشبهات التي أثارها النصارىٰ، ونظهر كيفية تناول ابن عاشور لها في تفسيره، مع كيفية دحضها.

خطة البحث

اقتضت خطة البحث أن يحتوي البحث على مقدمة ومبحثين، ضمت المقدمة (مشكلة البحث – أهمية البحث – هدف البحث – الدراسات السابقة – منهجية البحث – خطة البحث). وضم المبحث الأول: التعريف بالطاهر بن عاشور، وتفسيره التحرير والتنوير. وضم المبحث الثاني: تعريف الشبهة والجهود، وتبين بعض شبهات النصارىٰ والرد عليها. بالإضافة إلى الخاتمة التي ضمت أهم النتائج والتوصيات ثم المصادر.

المبحث الأول: التعريف بالطاهر بن عاشور وبتفسيره التحرير والتنوير

التعريف بالطاهر بن عاشور:

هوَ مُحَمَّد الطَّاهِر بن مُحَمَّد بن مُحَمَّد الطَّاهِر بن عاشور، الشهير بالطاهر بن عاشور، ولد بتونس في (١٢٩٦هـ – ١٨٧٩م) في أسرة علمية عريقة تمتد أُصُولها إلى بلاد الأندلس. وقد استقرت هذه الأسرة في تونس بعد حملات التنصير ومحاكم التفتيش التي تعرض لها مسلمو الأندلس، وينحدر الطاهر بن عاشور من أسرة من أرقى الأسر منزلة، وأعلاها شأناً، درج فيها عنوانَ نجابة وسمو، تكتنفه مخائل النعمة والرعاية، ومظاهر الحب والعناية من والده الشيخ محمد ابن عاشور، ومن جده للأم الوزير العلامة محمد العزيز بوعتور [٢].جاء مولد الطاهر بن عاشور فِي عصر يموج بالدعوات الإصلاحية التجديدية الَّتِي تُرِيدُ الخروج بِالدّينِ وعلومه من حيّز الجمود والتقليد إِلَى التَّجْدِيد والإصلاح، وَالخروج بالوطن من مستنقع التخَلف والاستعمار إِلَى ساحة التَّقَدُّم وَالْحريَّة والاستقلال، وأثمرت جهود التجدِيد والإصلاح فِي تونس الَّتِي قَامَت فِي الأساس على الاهتمام بالتعليم وتطويره عَن إنْشَاء مدرستين كان لهما أكبر الْأَثر فِي النهضة الفكرية فِي تونس، وهما: الْمدرسَة الصادقية الَّتِي أَنْشَأَهَا الْوَزِير خير الدَّين التّونسِيّ سنة (١٢٩١هـ – ١٨٧٤م) وَالَّتِي احتوت على مَنْهَج متطور امتزجت فِيهِ العلوم العَرَبية باللغات الأجنَبِية، إِضَافَة إِلَى تَعْلِيم الرياضيات والطبيعة والعلوم الاجتماعية، وَقد أُقِيمَت هَذِه الْمدرسَة على أَن تكون تعضيداً وتكميلاً للزيتونة، وأما المدرسَة الاخرى فهيَ المدرسَة الخلدونية التي تأسست

سنة (١٣١٤هـ – ١٨٩٦م) والتِي كَانَت مدرسة علمية تهتم بتكميل مَا يحتاج إِليه دارسو العلوم الإسلامية من عُلُوم لم تدرج فِي برامجهم التعليمية، أَو أدرجت ولكن لم يهتم بها وبمزاولتها فآلت إِلَى الإهمال، كما حفظ الطاهِر القرْآن الكرِيم، وَتعلم اللغَة الفرنسية، والتحق بِجَامِع الزيتونة سنة (١٣١٠هـ – ١٨٩٢م) وهو في (الـ ١٤) من عمره، فدرس علوم الزيتونة ونبغ فِيها، وكان منهجه أن الإِسلام دين فكر وحضارة وعلم ومدنية [٣].تخرج الطاهر في الزيتونة عام (١٣١٧هـ – ١٨٩٦م) والتحق بسلك التدريس في هذا الجامع العريق، ولم تمض إلا سنوات قليلة حتى عين مدرساً من الطبقة الأولى بعد اجتياز اختبارها سنة (١٣٢٤هـ – ١٩٠٣م) وكان الطاهر قد اختير للتدريس في المدرسة الصادقية سنة (١٣٢١هـ –١٩٠٠م) وكان لهذه التجربة المبكرة في التدريس بين الزيتونة ذات المنهج التقليدي، والصادقية ذات التعليم العصري المتطور أثرها في حياته، وفي عام (١٣٢٥هـ – ١٩٠٧م) عين الطاهر بن عاشور نائباً أول لدى النظَّارة العلمية بجامع الزيتونة فبدأ بتطبيق رؤيته الإصلاحية العلمية والتربوية، وسعى إلى إحياء بعض العلوم العربيّة، فأكثر من دروس الصَّرف في مراحل التعليم وكذلك دروس أدب اللُّغة، وفي صفر (١٣٢٨هـ – ١٩١٠م) اختير ابن عاشور ليكون في لجنة إصلاح التعليم الأولى بالزيتونة، وكذلك في لجنة الإصلاح الثانية (١٣٤٢هـ – ١٩٢٤م) ثم اختير شيخاً لجامع الزيتونة في (١٣٥١هـ – ١٩٣٢م) فكان أول شيوخ الزيتونة الذين جمعوا بين هذين المنصبينِ، ولكنه لم يلبث أن استقال من المشيخة بعد سنة ونصف السنة، بسبب العراقيل التي وضعت أمام خططه لإصلاح الزيتونة، وبعد ذلك أُعيد تعيينه شيخاً لجامع الزيتونة سنة (١٣٦٤هـ – ١٩٤٥م) وفي هذه المرة أدخل إصلاحات كبيرة في نظام التعليم الزيتوني فارتفع عدد الطلاب وزادت عدد المعاهد التعليمية، وفي سنة (١٣٧٤هـ – ١٩٥٦م) ولدى استقلال تونس، أُسندت إليه رئاسة الجامعة الزيتونية، وهو من أعضاء المجمعين العربيين في دمشق والقاهرة كان ابن عاشور (رحمه الله) إماما عالماً بالشريعة واللغة والأدب والبلاغة والتاريخ، وتوفي (رحمه الله) سنة (١٣٩٣هـ – ١٩٢٣م) ودفن في مقبرة الأسرة المالكة عن عمر يناهز السابعة والتسعين عاماً [٤]. كان الطاهر بن عاشور عالماً مصلحاً مجدداً، لا يستطيع الباحث في شخصيته وعلمه أن يقف على جانب واحد فقط، إلا أن القضية الجامعة في حياته وعلمه ومؤلفاته هي التجديد والإصلاح من خلال الإسلام وليس بعيدا عنه، ومن ثم جاءت آراؤه وكتاباته ثورة على التقليد والجمود وثورة على التسيب والضياع الفكري والحضاري. وله مصنفات كثيرة عظيمة القدر والنفع في فنون شتى، منها بل أهمها: تفسيره الذي هو (محل بحثنا) الموسوم بـ: " تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد" ثم اختصر الاسم فصار: " التحرير والتنوير من التفسير" وكتاب "مقاصد الشريعة الإسلامية " و " أصول النظام الاجتماعي في الإسلام " و " الوقف وآثاره في الإسلام " و " أصول الإنشاء والخطابة " و " موجز البلاغة " و " كشف المغطى من المعاني والألفاظ الواقعة في الموطأ " و " أليس الصبح بقريب " وغيرها كثير سواء ما كان منها مطبوعا أو مخطوطا [٥].تخرّج محمد الطاهر ابن عاشور على الشيخ عبد القادر التميمي في تجويد القرآن وعلم القراءات، وبخاصة في رواية قالون. وعلى الشيخ محمد النَّخْلِي، درس عليه من كتب علوم الوسائل القطر، والمكودي على الخلاصة، ومقدمة الإعراب في النحو، ومختصر السعد في البلاغة، والتهذيب في المنطق، وتخرّج به في أصول الفقه بدراسة الحطاب على الورقات، والتنقيح للقرافي، وفي الفقه المالكي بكتاب ميارة على المرشد، وكفاية الطالب على الرسالة. وقرأ على الشيخ محمد صالح الشريف كتاب الشيخ خالد الأزهري، والقطر لابن هشام، والمكودي على الخلاصة في النحو. والسُلّم في المنطق، وفي علوم المقاصد: مختصر السعد على العقائد النسفية، والتاودي على التحفة في الفقه. وعن الشيخ عمر ابن عاشور لامية الأفعال وشروحها في الصرف، وتعليق الدماميني على المغني لابن هشام في النحو، ومختصر السعد في البلاغة، والدردير في الفقه، والدرة في الفرائض. ودرس على الشيخ محمد النجار الشريف كتاب المكودي على الخلاصة في النحو، ومختصر السعد في البلاغة، والمواقف في علم الكلام، والبيقونيّة أو غرامي صحيح في مصطلح الحديث. وقرأ على الشيخ محمد طاهر جعفر شرح المحلِّي على جمع الجوامع في أصول الفقه، والشهاب الخفاجي على الشفاء للقاضي عياض في السيرة النبوية. وعلى الشيخ أحمد جمال الدين القطر في النحو، والدردير في الفقه. وعلى الشيخ محمد صالح الشاهد الدردير. وعلى الشيخ محمد العربي الدُّرْعي كفاية الطالب على الرسالة في الفقه. وهكذا ضم محمد الطاهر ابن عاشور إلى استظهاره لكتاب الله وحفظه العديد من المتون العلمية المتعلقة بالوسائل والمقاصد وكان هدفه مقاومة التخلف المزري الذي تردى فيه المسلمون بالرغم من أن دينهم دين الفكر والحضارة والعلم والمدنية [٦].

التعريف بتفسير التحرير والتنوير:

لا يعد كتاب تفسير التحرير والتنوير من بين كتب التفسير المعاصرة، فهو بالمنهج العلمي ألصق، وبطرق السابقين المتقدمين ألحق، ولا يقف صاحبه من آثار الأسلاف في هذا الميدان موقف الطاعن أو الذامّ، ولكن موقف المهذِّب والمستدْرِك، وصدّر الإمام الأكبر تفسيره بمقدمات في علوم القرآن، وجعل تلك المقدّمات قسماً من الجزء الأول من التحرير، تناول فيه عدداً من القضايا الهامة مثل: التفريق بين التفسير والتأويل، واستمداد علم التفسير، والتعريف بالمنهجين المعتمدين في تفسير القرآن: التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي [٧].كما بحث مقاصد التفسير، وأسباب

النزول، وعرّف بالقراءات، وتحدّث عن قصص القرآن، وختم جملة هذه المباحث بتقسيمات القرآن وترتيباته وأسماء ذلك، وخصص المقدّمتين التاسعة والعاشرة: الأولى ببيان أن المعاني التي تتحملها جمل القرآن ينبغي أن تكون مرادة منها، والثانية بإعجاز القرآن، وفيها من جملة المباحث ذكر مبتكرات القرآن وعاداته، ومضى في تفسيره على نمط فريد في عصرنا الحاضر، يداني به كبار أئمة التفسير المعتمدين، ويجنح بطلّابه فيه إلى مختلف الطرق، تمكيناً لهم من فهم النص القرآني فهماً كاملاً، وتدريباً لهم على الغوص على لطائف معانيه وإشاراته، غوصاً يسمح لهم بالانتباه إلى دقائقه، مع التربية لملكاتهم والصقل لمواهبهم والارتقاء بأذواقهم. فهو يخاطب به في حلقات درسه طبقة خاصة من طلبة الدراسات العليا، وعدداً من المدرّسين الذين كانوا يُهرعون إلى مجلسه للتأدّب به والتعلّم منه والتخرّج عليه، فهو يبني بهذه الطريقة جيلاً جديداً يتلقّى المشعل من يده، وينهج منهجه في سيره، فيعمّ بذلك نفعُه العامةَ والخاصةَ، ويحفظ به اللغة وآدابها، ويُعنى فيه بالقرآن الكريم الذي وعد سبحانه بحفظه في قوله جل وعلا: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [٨]. وقد اعتمد المنهج الصحيح في تفسيره، المنهج الذي لا غنى عنه لدارس ولا لباحث ينظر في كلام الله تعالى. فنبّه إلى أن تفسير التراكيب القرآنية ينبغي أن يجري على تبيين معاني الكلمات بحسب استعمال اللغة العربية، ثم بأخذ المعاني من دلالة الألفاظ والتراكيب وخواص البلاغة، وباستخلاص المعاني المستنبطة منها عن طرق دلالات المطابقة والتضمين والالتزام مما يسمح به النظم البليغ ولو تعددت المحامل والاحتمالات، وكذلك بنقل ما يؤثر عن أئمة المفسّرين من السلف والخلف مما ليس مجافياً للأصول ولا للعربية، مع تجنّب الاستطراد والاندفاع في أغراض شتىٰ ليست من مفادات تراكيب القرآن [٩].وإن أهم التفاسير التي اعتمد عليها في تفسير التحرير والتنوير: تفسير الكشاف، والمحرر الوجيز لابن عطية، ومفاتيح الغيب لفخر الدين الرازى، وتفسير البيضاوى الملخص من الكشاف ومن مفاتيح الغيب بتحقيق بديع وتفسير الشهاب الآلوسي، وما كتبه الطيبى والقزوينى والقطب والتفتازانى على الكشاف وما كتبه الخفاجى على تفسير البيضاوى، وتفسير ابى السعود، وتفسير القرطبى والموجود من تفسير الشيخ محمد بن عرفة التونسى من تقييد تلميذه الآبي، وهو بكونه تعليقا على تفسير ابن عطية اشبه منه بالتفسير، لذلك لا يأتى على جميع أي القرآن وتفاسير الاحكام، وتفسير الامام محمد بن جرير الطبري وكتاب درة التنزيل، المنسوب لفخر الدين الرازى، وربما ينسب للراغب الاصفهانى [١٠].ويتحدث صاحب التفسير عما يمتاز به تفسيره فيقول: " فجعلت حقا علـــى أن أبدى فى تفسير القرآن نكتا لم أر مـــن سبقني اليها، وأن أقف موقف الحكم بين طوائف المفسرين تارة لها، وآونة عليها. فان الاقتصار علـــى الحديث المعاد، تعطيل لفيض القرآن الـذي مالـــه مـن نفاد " [١١]وإذا تأملت تفسير العلامة الشيخ ابن عاشور ألفيت العقل الراجح، والرأي الصائب، وسعة الفكر، وقوة البيان، مع الحجة القوية والبرهان القاطع، وقد استعد لهذا الدور الجليل بما اكتسبه من علم وخبرة وذوق وملكة في اللغة وآدابها، وبما حصل له من وراء ذلك من مدارك وتصرّفات، هي نتيجة طبيعية لممارساته لفنون القول، لذلك تراه، وهو المزوّد بهذه الثقافة العالية الواسعة، والخبرة العميقة الطويلة، ويسلك في تفسيره وفي تحريره للمعاني والمقاصد الطريقةَ التطبيقية التي جرى عليها الزمخشري وابن الأنباري وابن الشجري وأمثالُهم، فإذا ما قصرت هذه عن الوفاء بما أراد، عاد إلى محفوظه ومروياته من كلام العرب وأشعارها مستشهداً ومستنبطاً، معلناً عن ابتكاراته وأفهامه الخاصة بقوله: "وعندي" وهكذا يضم هذه الطريقة الاستنتاجية التي كان عليها المبرّد إلى الطريقة التطبيقية، وهذا الاجتهاد هو ما لا يتسنّى لكل أحد، ولا نأنسُه بكثرة عند أمثاله من المتقدّمين في هذا العلم [١٢].وخلاصة القول إن تفسير التحرير والتنوير يعد من أبرز تفاسير القرن الرابع عشر ومن أدقهم في فهم كلام الله المجيد، وكان تفسيراً عصرياً متوسطاً في معترك أنظار الناظرين، وفي موقف الحكم بين طوائف المفسرين، وفي استخراج معاني الكتاب العزيز بالتفسير البياني التحليلي، وما حواه من المسائل التي لم يذكرها المفسرون، حيث يتميز بأسلوبه التحليلي الأدبي والاجتماعي، واهتمامه بالبلاغة القرآنية واللغة العربية، مع عدم إغفال الجانب المأثور للقراءات والأسباب، وهو يمثل محصلة نظرته التجديدية والإصلاحية، وقد اشتمل على كثير من الفوائد واللطائف والتحريرات، مع الحرص على تلمس الحِكم من الأحكام والتشريعات، والإكثار من النقول عن الأئمة والعلماء في شتى العلوم سواء كانت شرعية أو لغوية أو بلاغية أو غيرها من فروع العلم.

المبحث الثاني: تعريف الشبهة والجهود، وتبين بعض شبهات النصارىٰ والرد عليها

مفهوم الشُبْهَةُ:

الشُبْهَةُ في اللغة: الالتباسُ. والمُشْتَبِهات من الأمور المشْكِلاتُ. والمُتشابِهاتُ، المُتَماثِلاتُ، وتَشَبَّهَ فلان بكذا. والتَشْبيهُ: التمثيلُ. وأَشْبَهْتُ فلاناً وشابَهْتُهُ. واشْتَبَهَ عليّ الشيء. والشبه: ضرب من النحاس [١٣]. وَالشُّبْهَةُ فِي الْعَقِيدَةِ الْمَأْخَذُ الْمُلَبَّسُ سُمِّيَتْ شُبْهَةً لِأَنَّهَا تُشْبِهُ الْحَقَّ وَالشُّبْهَةُ الْعُلْقَةُ وَالْجَمْعُ فِيهِمَا شُبَهٌ وَشُبُهَاتٌ مِثْلُ: غُرْفَةٍ وَغُرَفٍ وَغُرُفَاتٍ وَتَشَابَهَتْ الْآيَاتُ تَسَاوَتْ أَيْضًا وَشَبَّهْتُهُ عَلَيْهِ تَشْبِيهًا مِثْلُ: لَبَّسْتُهُ عَلَيْهِ تَلْبِيسًا وَزْنًا وَمَعْنًى فَالْمُشَابَهَةُ الْمُشَارَكَةُ فِي مَعْنًى مِنْ الْمَعَانِي وَالِاشْتِبَاهُ الِالْتِبَاسُ [١٤].وَقَالَ اللَّيْثُ: المُشْتَبِهاتُ مِنَ الأُمور المُشْكِلاتُ. وَتَقُولُ: شَبَّهْتَ عليَّ يَا فلانُ إِذَا خَلَّطَ عَلَيْكَ. واشْتَبَه الأَمْرُ إِذَا اخْتَلَطَ، واشْتَبه عليَّ الشيءُ. وَتَقُولُ: أَشْبَهَ فلانٌ أَباه وأَنت مِثْلُهُ فِي الشِّبْهِ والشَّبَهِ. وَتَقُولُ: إِنِّي لَفِي شُبْهةٍ مِنْهُ، وحُروفُ

الشِّينِ يُقَالُ لَهَا أَشْباهٌ، وَكَذَلِكَ كُلُّ شَيْءٍ يكونُ سَواءً فإنها أَشْباهٌ كَقَوْلِ لَبِيدٍ فِي السَّواري وتَشْبيه قوائمِ النَّاقَةِ بِهَا: كعُفْرِ الهاجِرِيّ، إِذَا ابْتَناهُ، ... بأَشْباهٍ خُذِينَ عَلَى مِثالِ (١٥).

والشُبْهَةُ في الاصطلاح: التباس الحق بالباطل واختلاطه حتى لا يتبين، والشبهات أحد نوعي الفتن التي ترد على القلوب؛ فإن القلب مغزوٌ بفتنة الشبهة وبفتنة الشهوة، وفتنة الشبهة أخطر إذ أنها إذا أنشبت أظفارها في قلب العبد قلَّ إن ينجو؛ ولذا فإن السلف رحمهم الله كانوا يتباعدون عن الشبهة، ويحرصون على عدم الجلوس في المجالس التي تورد فيها الشبهة، بل كان أحدهم لا يسمع من المشبهين المبتدعين أهل الأهواء، لأن دينهم عزيز عليهم، فكانوا يحرصون على التباعد عن الشبهات إلى هذه الدرجة (١٦).وعرف الإمام ابن القيم (رحمه الله) الشُبْهَةُ بأنها: وَارِد يرد على الْقلب يحول بَينه وَبَين انكشاف الْحق لَهُ. فَمَتَى بَاشر الْقلب حَقِيقَة الْعلم لم تُؤثر تِلْكَ الشُّبْهَة فِيهِ بل يقوى علمه ويقينه بردهَا وَمَعْرِفَة بُطْلَانهَا وَمَتى لم يُبَاشر حَقِيقَة الْعلم بِالْحَقِّ قلبه قدحت فِيهِ الشَّك بِأول وهلة فان تداركها والا تَتَابَعَت على قلبه امثالها حَتَّى يصير شاكا مُرْتَابا وَالْقلب يتوارده جيشان من الْبَاطِل جَيش شهوات الغي وجيش شُبُهَات الْبَاطِل فأيما قلب صغا اليها وركن اليها تشربها وامتلأ بهَا فينضح لِسَانه وجوارحه بموجبها فَإِن أشرب شُبُهَات الْبَاطِل تَفَجَّرَتْ على لِسَانه الشكوك والشبهات والايرادات فيظن الْجَاهِل ان ذَلِك لسعة علمه وَإِنَّمَا ذَلِك من عدم علمه ويقينه (١٧).

مفهوم الجُهُود:

قَالَ اللَّيْث: الجَهْد مَا جَهَد الإنسانَ من مَرَض أَو أَمر شاق فَهُوَ مَجْهود. قَالَ: والجُهْد لُغَة بِهَذَا الْمَعْنى، قَالَ: والجُهد: شَيْء قليلٌ يعِيش بِهِ المُقلّ على جَهْدِ العَيْش. قَالَ الله جلّ وعزّ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ (١٨)، وعلى هَذَا الْمَعْنى. قَالَ: والجَهْد أَيْضا: بلُوغُكَ غايةَ الْأَمر الّذي لَا تألو عَن الجَهْد فِيهِ. تَقول: جَهَدْتُ جَهْدي واجتهدتُ رَأْيِي ونَفْسي حَتَّى بلغتُ مجهودي (١٩).وقال ابن دريد: والجهد لُغَتَانِ فصيحتان بِمَعْنى وَاحِد بلغ الرجل جهده وجهده ومجهوده إِذا بلغ أَقْصَى قوته وطوقه. وجهدت الرجل إِذا حَملته على أَن يبلغ مجهوده. وَالرجل جَاهد فِي أمره: جاد فِيهِ (٢٠). وخلاصة القول إن مفهوم الجهود يشير إلى بذل الطاقة والوسع في تحقيق هدف ما، سواء كان هذا الهدف مادياً أو معنوياً، ويتسع ليشمل الجهد البدني والفكري والنفسي.

شبهات النصارىٰ والرد عليها من تفسير التحرير والتنوير:

رأى أعداء الدين أن ينتهجوا نهجاً يضلون بـــه أهل الإسلام ممن لا يقدرون علـــى إضلاله بالشهوات، فينتقلون معه إلـــى أسلوب بـــث الشبهات بأنواعها وذلك لتشتيت فكر المسلم وزعزعة ثقته بنفسه وبدينه، ومن تلك الشبهات ما يتعلق بالقرآن، وهـــو المصدر الأول للمسلمين، ولكن المؤمن الذكي عنده من الإيمان واليقين ما يجعله مطمئنا لدينه وعقيدته، قال تعالىٰ: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاء﴾ (٢١). ومن هذه الشبهات ما يلي:

اولاً: شبهة اتخاذ الولد والرد عليها

قال تعالىٰ: ﴿وَقَالُواْ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ (٢٢). قال ابن عاشور (رحمه الله): وَقَدِ اجْتَمَعَ عَلَى هَذِهِ الضَّلَالَةِ الْفِرَقُ الثَّلَاثُ، كَمَا اتَّفَقُوا عَلَى مَا قَبْلَهَا، فَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَ الْمُشْرِكُونَ الْمَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللَّهِ فَتَكُونُ هَذِهِ الْآيَةُ رُجُوعًا إِلَى جَمْعِهِمْ فِي قَرَنٍ إِتْمَامًا لِجَمْعِ أَحْوَالِهِمُ الْوَاقِعِ فِي قَوْلِهِ تعالىٰ: ﴿مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلاَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٢٣)، وَفِي قَوْلِهِ: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ (٢٤)، وَقَدْ خُتِمَتْ هَذِهِ الْآيَةُ بِآيَةٍ جَمَعَتِ الْفَرِيقَ الثَّالِثَ فِي مَقَالَةٍ أُخْرَى وَذَلِكَ في قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا اللَّهُ﴾ (٢٥)، إِلَى قَوْلِهِ تعالىٰ: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ (٢٦). وَالْقَوْلُ هُنَا عَلَى حَقِيقَتِهِ وَهُوَ الْكَلَامُ اللِّسَانِيُّ وَلِذَلِكَ نَصَبَ الْجُمْلَةَ وَأُرِيدَ أَنَّهُمُ اعْتَقَدُوا ذَلِكَ أَيْضًا لِأَنَّ الْغَالِبَ فِي الْكَلَامِ أَنْ يَكُونَ عَلَى وَفْقِ الِاعْتِقَادِ. وَقَوْلُهُ: اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً جَاءَ بِلَفْظِ (اتَّخَذَ) تَعْرِيضًا بِالِاسْتِهْزَاءِ بِهِمْ بِأَنَّ كَلَامَهُمْ لَا يَلْتَئِمُ لِأَنَّهُمْ أَثْبَتُوا وَلَدًا لِلَّهِ وَيَقُولُونَ اتَّخَذَهُ اللَّهُ. وَالِاتِّخَاذُ الِاكْتِسَابُ وَهُوَ يُنَافِي الْوَلَدِيَّةَ إِذِ الْوَلَدِيَّةُ تُولَدُ بِدُونِ صُنْعٍ فَإِذَا جَاءَ الصُّنْعُ جَاءَتِ الْعُبُودِيَّةُ لَا مَحَالَةَ وَهَذَا التَّخَالُفُ هُوَ مَا يُعَبَّرُ عَنْهُ فِي عِلْمِ الْجَدَلِ بِفَسَادِ الْوَضْعِ وَهُوَ أَنْ يَسْتَنْتِجَ وُجُودَ الشَّيْءِ مِنْ وُجُودِ ضِدِّهِ كَمَا يَقُولُ قَائِلٌ: الْقَتْلُ جِنَايَةٌ عَظِيمَةٌ فَلَا تُكَفَّرُ مِثْلُ الرِّدَّةِ. وَأَصْلُ هَذِهِ الْمَقَالَةِ بِالنِّسْبَةِ لِلْمُشْرِكِينَ ناشئ عَنْ جَهَالَةٍ وَبِالنِّسْبَةِ لأهل الْكِتَابَيْنِ ناشئ عَنْ تَوَغُّلِهِمَا فِي سُوءِ فَهْمِ الدِّينِ حَتَّى تَوَهَّمُوا التَّشْبِيهَاتِ وَالْمَجَازَاتِ حَقَائِقَ فَقَدْ وَرَدَ وَصْفُ الصَّالِحِينَ بِأَنَّهُمْ أَبْنَاءُ اللَّهِ عَلَى طَرِيقَةِ التَّشْبِيهِ وَوَرَدَ فِي كِتَابِ النَّصَارَى وَصْفُ اللَّهِ تَعَالَى بِأَنَّهُ أَبُو عِيسَى وَأَبُو الْأُمَّةِ فَتَلَقَّفَتْهُ عُقُولٌ لَا تَعْرِفُ التَّأْوِيلَ وَلَا تُؤَيِّدُ اعْتِقَادَهَا بِوَاضِحِ الدَّلِيلِ فَظَنَّتْهُ عَلَى حَقِيقَتِهِ (٢٧)ومما يتضح من هذه الشبهة أن ابن عاشور اعتمد في تفنيدها، على أن فكرة اتخاذ الولد هي تشبيه الله بالخلق، وهذا تشبيه باطل، لأن الولد

جزء من المخلوق، والله تعالى هو الخالق، ولا يمكن أن يكون جزءاً من مخلوقاته، كما إن هذا الامر يتنافى مع صفات الكمال الإلهي، فالخالق غني عن الولد، ولا يحتاج إلى أي شريك أو معين، قال تعالى: ﴿وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ (٢٨).

ثانياً: شبهة اعتقاد النصارى في ألوهية عيسى (عليه السلام) والرد عليها

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُواْ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ .....﴾ (٢٩). قال ابن عاشور (رحمه الله): وَالْجُمْلَةُ حَالٌ مِنَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ، أَيْ قَالُوا ذَلِكَ فِي حَالِ نِدَاءِ الْمَسِيحِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ بِأَنَّ اللَّهَ رَبُّهُ وَرَبُّهُمْ، أَيْ لَا شُبْهَةَ لَهُمْ، فَهُمْ قَالُوا: إِنَّ اللَّهَ اتَّحَدَ بِالْمَسِيحِ فِي حَالِ أَنَّ الْمَسِيحَ الَّذِي يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِهِ وَالَّذِي نَسَبُوهُ إِلَيْهِ قَدْ كَذَّبَهُمْ، لِأَنَّ قَوْلَهُ: رَبِّي وَرَبَّكُمْ، يُنَاقِضُ قَوْلَهُمْ: إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ، لِأَنَّهُ لَا يَكُونُ إِلَّا مَرْبُوبًا، وَذَلِكَ مُفَادُ قَوْلِهِ: رَبِّي، وَلِأَنَّهُ لَا يَكُونُ مَعَ اللَّهِ إِلَهٌ آخَرُ، وَذَلِكَ مُفَادُ قَوْلِه وَرَبَّكُمْ، وَذَلِكَ عَقَّبَ بِجُمْلَةِ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ. فَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْجُمْلَةُ حِكَايَةً لِكَلَامٍ صَدَرَ مِنْ عِيسَى (عَلَيْهِ السَّلَامُ) فَتَكُونُ تَعْلِيلًا لِلْأَمْرِ بِعِبَادَةِ اللَّهِ. وَوُقُوعُ (إِنَّ) فِي مِثْلِ هَذَا الْمَقَامِ تُغْنِي غَنَاءَ فَاءِ التَّفْرِيعِ وَتُفِيدُ التَّعْلِيلَ. وَفِي حِكَايَتِهِ تَعْرِيضٌ بِأَنَّ قَوْلَهُمْ ذَلِكَ قَدْ أَوْقَعَهُمْ فِي الشِّرْكِ وَإِنْ كَانُوا يَظُنُّونَ أَنَّهُمُ اجْتَنَبُوهُ حَذَرًا مِنَ الْوُقُوعِ فِيمَا حَذَّرَ مِنْهُ الْمَسِيحُ، لِأَنَّ الَّذِينَ قَالُوا: إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ، فهذا شِرْكٌ لَا مَحَالَةَ، بَلْ هُوَ أَشَدُّ، لِأَنَّهُمْ أَشْرَكُوا مَعَ اللَّهِ غَيْرَهُ وَمَزَجُوهُ بِهِ فَوَقَعُوا فِي الشِّرْكِ وَإِنْ رَامُوا تَجَنُّبَ تَعَدُّدِ الْآلِهَةِ، فَقَدْ أَبْطَلَ اللَّهُ قَوْلَهُمْ بِشَهَادَةِ كَلَامِ مَنْ نَسَبُوا إِلَيْهِ الْإِلَهِيَّةِ إِبْطَالًا تَامًّا. وَإِنْ كَانَتِ الْجُمْلَةُ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى فَهُوَ تَذْيِيلٌ لِإِثْبَاتِ كُفْرِهِمْ وَزِيَادَةُ تَنْبِيهٍ عَلَى بُطْلَانِ مُعْتَقَدِهِمْ وَتَعْرِيضٌ بِهِمْ بِأَنَّهُمْ قَدْ أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مِنْ حَيْثُ أَرَادُوا التَّوْحِيدَ. وَالضَّمِيرُ الْمُقْتَرِنُ بِإِنَّ ضَمِيرُ الشَّأْنِ يَدُلُّ عَلَى الْعِنَايَةِ بِالْخَبَرِ الْوَارِدِ بَعْدَهُ. وَمَعْنَى حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ مَنَعَهَا مِنْهُ، أَيْ مِنَ الْكَوْنِ فِيهَا (٣٠)ومما يتضح من هذه الشبهة أن ابن عاشور اعتمد في تفنيدها، على أن قول المسيح عليه السلام: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ (٣١). دليل على أن المسيح لم يدع الألوهية، وأنه أمر بعبادة الله وحده، وهذا يدل على بطلان دعوى النصارى في تأليه المسيح، لما فيه من تنزيه لله تعالى عن الشرك وبيان أن المسيح عليه السلام لم يدع الألوهية بل أمر بعبادة الله وحده.

ثالثاً: شبهة تفضيل عيسى (عليه السلام) على نبينا محمد (صلى الله عليه وسلم) والرد عليها

قال تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ .....﴾ (٣٢). قال ابن عاشور (رحمه الله): مَوْقِعُ هَذِهِ الْآيَةِ مَوْقِعُ الْفَذْلَكَةِ لِمَا قَبْلَهَا وَالْمُقَدِّمَةِ لِمَا بَعْدَهَا. فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا أَنْبَأَ بِاخْتِبَارِ الرُّسُلِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى وَمَا عَرَضَ لَهُمْ مَعَ أَقْوَامِهِمْ وَخَتَمَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ .....﴾ (٣٣). وجَمَعَ ذَلِكَ كُلَّهُ فِي قَوْلِهِ: تِلْكَ الرُّسُلُ لَفْتًا إِلَى الْعِبَرِ الَّتِي فِي خِلَالِ ذَلِكَ كُلِّهِ. وَلَمَّا أَنْهَى ذَلِكَ كُلَّهُ عَقَّبَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ .....﴾ (٣٤). وهذا تَذْكِيرًا بِأَنَّ إِعْلَامَهُ بِأَخْبَارِ الْأُمَمِ وَالرُّسُلِ آيَةٌ عَلَى صِدْقِ رِسَالَتِهِ. إِذْ مَا كَانَ لِمِثْلِهِ قِبَلٌ بِعِلْمِ ذَلِكَ لَوْلَا وَحْيُ اللَّهِ إِلَيْهِ. وَفِي هَذَا كُلِّهِ حُجَّةٌ عَلَى الْمُشْرِكِينَ وَعَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ جَحَدُوا رِسَالَةَ مُحَمَّدٍ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) (٣٥)وَالْمَقْصُودُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ تَمْجِيدُ سُمْعَةِ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وَتَعْلِيمُ الْمُسْلِمِينَ أَنَّ هَاتِهِ الْفِئَةَ الطَّيِّبَةَ مَعَ عَظِيمِ شَأْنِهَا قَدْ فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ، وَأَسْبَابُ التَّفْضِيلِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى، غَيْرَ أَنَّهَا تَرْجِعُ إِلَى مَا جَرَى عَلَى أَيْدِيهِمْ مِنَ الْخَيْرَاتِ الْمُصْلِحَةِ لِلْبَشَرِ وَمِنْ نَصْرِ الْحَقِّ، وَمَا لَقُوهُ مِنَ الْأَذَى فِي سَبِيلِ ذَلِكَ، وَمَا أُيِّدُوا بِهِ مِنَ الشَّرَائِعِ الْعَظِيمَةِ الْمُتَفَاوِتَةِ فِي هُدَى الْبَشَرِ، وَفِي عُمُومِ ذَلِكَ الْهُدَى وَدَوَامِهِ، وَإِذَا كَانَ الرَّسُولُ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَقُولُ: «لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا خَيْرٌ لَكَ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ»، فَمَا بَالُكَ بِمَنْ هَدَى اللَّهُ بِهِمْ أُمَمًا فِي أَزْمَانٍ مُتَعَاقِبَةٍ، وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَانَ مُحَمَّدٌ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أَفْضَلَ الرُّسُلِ. وَيَتَضَمَّنُ الْكَلَامُ ثَنَاءً عَلَيْهِمْ وَتَسْلِيَةً لِلرَّسُولِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) فِيمَا لَقِيَ مِنْ قَوْمِهِ (٣٦). وَقَدْ خَصَّ اللَّهُ مِنْ جُمْلَةِ الرُّسُلِ بَعْضًا بِصِفَاتٍ يَتَعَيَّنُ بِهَا الْمَقْصُودُ مِنْهُمْ، أَوْ بِذِكْرِ اسْمِهِ، فَذَكَرَ ثَلَاثَةً إِذْ قَالَ: مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ، وَهَذَا مُوسَى (عَلَيْهِ السَّلَامُ) لِاشْتِهَارِهِ بِهَذِهِ الْخَصْلَةِ الْعَظِيمَةِ فِي الْقُرْآنِ، وَذَكَرَ عِيسَى (عَلَيْهِ السَّلَامُ)، وَوَسَّطَ بَيْنَهِمَا الْإِيمَاءَ إِلَى مُحَمَّدٍ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بِوَصْفِهِ، بِقَوْلِهِ: وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجاتٍ. وَقَوْلُهُ: وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجاتٍ يَتَعَيَّنُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مِنَ الْبَعْضِ هُنَا وَاحِدًا مِنَ الرُّسُلِ مُعَيَّنًا لَا طَائِفَةً، وَتَكُونَ الدَّرَجَاتُ مَرَاتِبَ مِنَ الْفَضِيلَةِ ثَابِتَةً لِذَلِكَ الْوَاحِدِ: لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ الْمُرَادُ مِنَ الْبَعْضِ جَمَاعَةً مِنَ الرُّسُلِ مُجْمَلًا، وَمِنَ الدَّرَجَاتِ دَرَجَاتٍ بَيْنَهُمْ لَصَارَ الْكَلَامُ تَكْرَارًا مَعَ قَوْلِهِ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَلِأَنَّهُ لَوْ أُرِيدَ بَعْضٌ فُضِّلَ عَلَى بَعْضٍ لَقَالَ، وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ.....﴾ (٣٧). وَهَذَا إِعْلَامٌ بِأَنَّ بَعْضَ الرُّسُلِ أَفْضَلُ مِنْ بَعْضٍ عَلَى وَجْهِ الْإِجْمَالِ وَعَدَمِ تَعْيِينِ الْفَاضِلِ مِنَ الْمَفْضُولِ: ذَلِكَ أَنَّ كُلَّ فَرِيقٍ اشْتَرَكُوا فِي صِفَةِ خَيْرٍ لَا يَخْلُونَ مِنْ أَنْ يَكُونَ بَعْضُهُمْ أَفْضَلَ مِنْ بَعْضٍ بِمَا لِلْبَعْضِ مِنْ صِفَاتِ كَمَالٍ زَائِدَةٍ عَلَى الصِّفَةِ الْمُشْتَرَكَةِ بَيْنَهُمْ، وَفِي تَمْيِيزِ صِفَاتِ التَّفَاضُلِ غُمُوضٌ، وَتَطَرُّقٌ لِتَوَقُّعِ الْخَطَأِ وَعُرُوضٌ، وَلَيْسَ ذَلِكَ بِسَهْلٍ عَلَى الْعُقُولِ الْمُعَرَّضَةِ لِلْغَفْلَةِ وَالْخَطَأِ. فَإِذَا كَانَ التَّفْضِيلُ قَدْ أَنْبَأَ بِهِ رَبُّ الْجَمِيعِ، وَمَنْ إِلَيْهِ التَّفْضِيلُ، فَلَيْسَ مِنْ قَدْرِ النَّاسِ أَن يتصدّوا لِوَضْعِ الرُّسُلِ فِي مَرَاتِبِهِمْ، وَحَسْبُهُمُ الْوُقُوفُ عِنْدَ مَا يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ أَوْ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ (٣٨).وَهَذَا مَوْرِدُ الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ «لَا تُفَضِّلُوا بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ» يَعْنِي بِهِ النَّهْيَ عَنِ التَّفْضِيلِ

التَّفْصِيليّ، بِخِلَافِ التَّفْضِيلِ عَلَى سَبِيلِ الْإِجْمَالِ، كَمَا نَقُولُ: الرُّسُلُ أَفْضَلُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ لَيْسُوا رُسُلًا. وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ مُحَمَّدًا (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أَفْضَلُ الرُّسُلِ لِمَا تَظَاهَرَ مِنْ آيَاتِ تَفْضِيلِهِ وَتَفْضِيلِ الدِّينِ الَّذِي جَاءَ بِهِ وَتَفْضِيلِ الْكِتَابِ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْهِ. وَهِيَ مُتَقَارِنَةُ الدَّلَالَةِ تَنْصِيصًا وَظُهُورًا. إِلَّا أَنَّ كَثْرَتَهَا تُحَصِّلُ الْيَقِينَ بِمَجْمُوعِ مَعَانِيهَا عَمَلًا بِقَاعِدَةِ كَثْرَةُ الظَّوَاهِرِ تُفِيدُ الْقَطْعَ. وَأَعْظَمُهَا آيَة، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ.....﴾ (٣٩). وَأَمَّا قَوْلُ النَّبِي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): «لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى» يَعْنِي بِقَوْلِهِ: «أَنَا» نَفْسَهُ عَلَى أَرْجَحِ الِاحْتِمَالَيْنِ، وَقَوْلُهُ: «لَا تُفَضِّلُونِي عَلَى مُوسَى»، فَذَلِكَ صَدَرَ قَبْلَ أَنْ يُنْبِئَهُ اللَّهُ بِأَنَّهُ أَفْضَلُ الْخَلْقِ عِنْدَهُ (٤٠).ومما يتضح من هذه الشبهة أن ابن عاشور اعتمد في تفنيدها، على قوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ .....﴾ (٤١). لفتاً إلى العبر من ذلك كله، ولما أنهى ذلك كله بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ .....﴾ (٤٢). وقَوْلُ النَّبِي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): «لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى» وَقَوْلُهُ: «لَا تُفَضِّلُونِي عَلَى مُوسَى» فتأكد له ابن على أن الآية تتحدث عن تفضيل إجمالي للرسل، وليس تفصيلاً لمراتبهم الفردية، فالآية تقرر أن هناك تفاضلًا بين الرسل، لكنها لا تعين من هو الأفضل على وجه التحديد

رابعاً: شبهة ادعاء النصارى بأن عيسى (عليه السلام) أمرهم بعبادته والرد عليها

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ .....﴾ (٤٣). قال ابن عاشور (رحمه الله): وَهَذَا مَبْدَأُ تَقْرِيعِ النَّصَارَى بَعْدَ أَنْ فَرَغَ مِنْ تَقْرِيعِ الْيَهُودِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ .....﴾ (٤٤). وَتَقْرِيعُ النَّصَارَى هُوَ الْمَقْصُودُ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ كَمَا تَقَدَّمَ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُواْ لاَ عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ﴾ (٤٥). فَالِاسْتِفْهَامُ هُنَا كَالِاسْتِفْهَامِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى لِلرُّسُلِ مَاذَا أُجِبْتُمْ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ عِيسَى لَمْ يَقُلْ ذَلِكَ وَلَكِنْ أُرِيدَ إِعْلَانُ كَذِبِ مَنْ كَفَرَ مِنَ النَّصَارَى (٤٦).وَتَقْدِيمُ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ عَلَى الْخَبَرِ الْفِعْلِيِّ فِي قَوْلِهِ: أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الِاسْتِفْهَامَ مُتَوَجِّهٌ إِلَى تَخْصِيصِهِ بِالْخَبَرِ دُونَ غَيْرِهِ مَعَ أَنَّ الْخَبَرَ حَاصِلٌ لَا مَحَالَةَ. فَقَوْلُ قَائِلِينَ: اتَّخِذُوا عِيسَى وَأُمَّهُ إِلَهَيْنِ، وَاقِعٌ. وَإِنَّمَا أُلْقِيَ الِاسْتِفْهَامُ لِعِيسَى أَهُوَ الَّذِي قَالَ لَهُمْ ذَلِكَ تَعْرِيضًا بِالْإِرْهَابِ وَالْوَعِيدِ بتوجّه عُقُوبَة ذَلِك إِلَى مَنْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ إِنْ تَنَصَّلَ مِنْهُ عِيسَى فَيَعْلَمُ أَحْبَارُهُمُ الَّذِينَ اخْتَرَعُوا هَذَا الْقَوْلَ أَنَّهُمُ الْمُرَادُ بِذَلِكَ. وَالْمَعْنَى أَنَّهُ إِنْ لَمْ يَكُنْ هُوَ قَائِلُ ذَلِكَ فَلَا عُذْرَ لِمَنْ قَالَهُ لِأَنَّهُمْ زَعَمُوا أَنَّهُمْ يَتَّبِعُونَ أَقْوَالَ عِيسَى وَتَعَالِيمَهُ، فَلَوْ كَانَ هُوَ الْقَائِلُ لَقَالَ: اتَّخِذُونِي وَأُمِّي، وَلِذَلِكَ جَاءَ التَّعْبِيرُ بِهَذَيْنِ اللَّفْظَيْنِ فِي الْآيَةِ. وَالْمُرَادُ بِالنَّاسِ أَهْلُ دِينِهِ. وَقَوْلُهُ: مِنْ دُونِ اللَّهِ مُتَعَلِّقٌ بِ اتَّخِذُونِي، وَحَرْفُ مِنْ صِلَةٌ وَتَوْكِيدٌ. وَكَلِمَةُ دُونِ اسْمٌ لِلْمَكَانِ الْمُجَاوِزِ، وَيَكْثُرُ أَنْ يَكُونَ مَكَانًا مَجَازِيًّا مُرَادًا بِهِ الْمُغَايَرَةُ، فَتَكُونُ بِمَعْنَى (سِوَى). وَانْظُرْ مَا تَقَدَّمَ آنِفًا عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا .....﴾ (٤٧)، وهَذَا إِلْزَامًا لَهُمْ بِشَنَاعَةِ إِثْبَاتِ إِلَهِيَّةٍ لِغَيْرِ اللَّهِ لِأَنَّ النَّصَارَى لَمَّا ادَّعَوْا حُلُولَ اللَّهِ فِي ذَاتِ عِيسَى تَوَزَّعَتِ الْإِلَهِيَّةُ وَبَطُلَتِ الْوَحْدَانِيَّةُ (٤٨).وَجَوَابُ عِيسَى (عَلَيْهِ السَّلَامُ) بِقَوْلِهِ: سُبْحانَكَ تَنْزِيهٌ لِلَّهِ تَعَالَى عَنْ مَضْمُونِ تِلْكَ الْمَقَالَةِ، وَكَانَتِ الْمُبَادَرَةُ بِتَنْزِيهِ اللَّهِ تَعَالَى أَهَمَّ مِنْ تَبْرِئَتِهِ نَفْسَهُ، عَلَى أَنَّهَا مُقَدِّمَةٌ لِلتَّبَرِّي لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ يُنَزِّهُ اللَّهَ عَنْ ذَلِكَ فَلَا جَرَمَ أَنَّهُ لَا يَأْمُرُ بِهِ أَحَدًا، فَبَرَّأَ نَفْسَهُ فَقَالَ: مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ. وهذه مُبَالَغَةٌ فِي التَّبْرِئَةِ مِنْ ذَلِكَ، أَيْ مَا يُوجَدُ لَدَيَّ قَوْلُ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ، فَاللَّامُ فِي قَوْلِهِ: مَا يَكُونُ لِي لِلِاسْتِحْقَاقِ، أَيْ مَا يُوجَدُ حَقٌّ أَنْ أَقُولَ. وَذَلِكَ أَبْلَغُ مِنْ لَمْ أَقُلْهُ لِأَنَّهُ نَفَى أَنْ يُوجَدَ اسْتِحْقَاقُهُ ذَلِكَ الْقَوْلَ (٤٩).ومما يتضح من هذه الشبهة أن ابن عاشور اعتمد في تفنيدها، على قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُواْ لاَ عِلْمَ لَنَا﴾ (٥٠). وبعض الأساليب اللغوية التي تم ذكرها، كما ورأى أن قول عيسى (عليه السلام) "سبحانك" هو تعبير عن تنزيه الله وتقديسه، وأن قوله "ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق" يدل على اعترافه بعبوديته لله وأنه لا يقول إلا ما أذن الله له به.

خامساً: شبهة اعتقاد النصارى أن عيسى قد أميت ومع ذلك فهم يؤلهونه والرد عليها

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ .....﴾ (٥١). قال ابن عاشور (رحمه الله): وَهَذَا اسْتِئْنَافٌ، وَ (إِذْ) ظَرْفٌ غَيْرُ مُتَعَلِّقٍ بِشَيْءٍ، أَوْ مُتَعَلِّقٌ بِمَحْذُوفٍ، أَيِ اذْكُرْ إِذْ قَالَ اللَّهُ: كَمَا تَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً .....﴾ (٥٢)، وَهَذَا حِكَايَةٌ لِأَمْرِ رَفْعِ الْمَسِيحِ وَإِخْفَائِهِ عَنْ أَنْظَارِ أَعْدَائِهِ. وَقَدَّمَ اللَّهُ فِي خِطَابِهِ إِعْلَامَهُ بِذَلِكَ اسْتِئْنَاسًا لَهُ، إِذْ لَمْ يَتِمَّ مَا يَرْغَبُهُ مِنْ هِدَايَةِ قَوْمِهِ. مَعَ الْعِلْمِ بِأَنَّهُ يُحِبُّ لِقَاءَ اللَّهِ، وَتَبْشِيرًا لَهُ بِأَنَّ اللَّهَ مُظْهِرٌ دِينَهُ، وَقَوْلُهُ: إِنِّي مُتَوَفِّيكَ ظَاهِرُ مَعْنَاهُ: إِنِّي مُمِيتُكَ، هَذَا هُوَ مَعْنَى هَذَا الْفِعْلِ فِي مَوَاقِعِ اسْتِعْمَالِهِ لِأَنَّ أَصْلَ فِعْلِ تَوَفَّى الشَّيْءَ أَنَّهُ قَبَضَهُ تَامًّا وَاسْتَوْفَاهُ. فَيُقَالُ: تَوَفَّاهُ اللَّهُ أَيْ قَدَّرَ مَوْتَهُ، وَيُقَالُ: تَوَفَّاهُ مَلَكُ الْمَوْتِ أَيْ أَنْفَذَ إِرَادَةَ اللَّهِ بِمَوْتِهِ، وَيُطْلَقُ التَّوَفِّي عَلَى النَّوْمِ مَجَازًا بِعَلَاقَةِ الْمُشَابَهَةِ فِي نَحْوِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى .....﴾ (٥٣). أَيْ وَأَمَّا الَّتِي لَمْ تَمُتِ الْمَوْتَ الْمَعْرُوفَ فَيُمِيتُهَا فِي مَنَامِهَا مَوْتًا شَبِيهًا بِالْمَوْتِ التَّامِّ كَقَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم

بِالنَّهَارِ .....﴾ [٥٤]. فَالْكَلَامُ مُنْتَظِمٌ غَايَةَ الِانْتِظَامِ، وَقَدِ اشْتَبَهَ نَظْمُهُ عَلَى بَعْضِ الْأَفْهَامِ. وَأَصْرَحُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ آيَةُ الْمَائِدَةِ، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ .....﴾ [٥٥]، لِأَنَّهُ دَلَّ عَلَى أَنَّهُ قَدْ تُوُفِّيَ الْوَفَاةَ الْمَعْرُوفَةَ الَّتِي تَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَبَيْنَ عِلْمِ مَا يَقَعُ فِي الْأَرْضِ، وَحَمْلُهَا عَلَى النَّوْمِ بِالنِّسْبَةِ لِعِيسَى لَا مَعْنَى لَهُ لِأَنَّهُ إِذَا أَرَادَ رَفْعَهُ لَمْ يَلْزَمْ أَنْ يَنَامَ وَلِأَنَّ النَّوْمَ حِينَئِذٍ وَسِيلَةٌ لِلرَّفْعِ فَلَا يَنْبَغِي الِاهْتِمَامُ بِذِكْرِهِ وَتَرْكُ ذِكْرِ الْمَقْصِدِ، فَالْقَوْلُ بِأَنَّهَا بِمَعْنَى الرَّفْعِ عَنْ هَذَا الْعَالَمِ إِيجَادُ مَعْنًى جَدِيدٍ لِلْوَفَاةِ فِي اللُّغَةِ بِدُونِ حُجَّةٍ، وَلِذَلِكَ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَوَهْبُ بْنُ مُنَبِّهٍ: إِنَّهَا وَفَاةُ مَوْتٍ وَهُوَ ظَاهِرُ قَوْلِ مَالِكٍ فِي جَامِعِ الْعُتْبِيَّةِ «قَالَ مَالِكٌ: مَاتَ عِيسَى وَهُوَ ابْنُ إِحْدَى وَثَلَاثِينَ سَنَةً» قَالَ ابْنُ رُشْدٍ فِي «الْبَيَانِ وَالتَّحْصِيلِ»: «يُحْتَمَلُ أَنَّ قَوْلَهُ: مَاتَ وَهُوَ ابْنُ ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ عَلَى الْحَقِيقَةِ لَا عَلَى الْمَجَازِ» [٥٦].ومما يتضح من هذه الشبهة أن ابن عاشور اعتمد في تفنيدها، على المعاني اللغوية لكلمة "متوفيك" و"رافعك"، معتبراً أن "التوفي" قد يعني الإماتة وقد يعني الأخذ، وأن "الرفع" قد يكون مكانياً أو معنوياً أو كلاهما معاً، كما ربط بين هذه الآية وغيرها من آيات القرآن الكريم التي تتحدث عن عيسى عليه السلام، خاصةً الآيات التي تتحدث عن رفعه إلى السماء ومجيئه في آخر الزمان.

سادساً: شبهة ادعاء النصارى بأنهم أبناء الله والرد عليها

قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاء اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم .....﴾ [٥٧]. قال ابن عاشور (رحمه الله): وهؤلاء يَقُولُونَ مَا لَا يَلِيقُ بِعَظَمَةِ اللَّهِ تَعَالَى، ففهي الآية التي سبقتها، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ.....﴾ [٥٨]، وَقَدْ وَقَعَ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ التَّعْبِيرُ بِأَبْنَاءِ اللَّهِ فَفِي سِفْرِ التَّثْنِيَةِ أَوَّلُ الْفَصْلِ الرَّابِعَ عَشَرَ قَوْلُ مُوسَى «أَنْتُمْ أَوْلَادٌ لِلرَّبِّ أَبِيكُمْ». وَأَمَّا الْأَنَاجِيلُ فَهِيَ مَمْلُوءَةٌ بِوَصْفِ اللَّهِ تَعَالَى بِأَبِي الْمَسِيحِ، وَبِأَبِي الْمُؤْمِنِينَ بِهِ، وَتَسْمِيَةُ الْمُؤْمِنِينَ أَبْنَاءَ اللَّهِ فِي مَتَّى فِي الْإِصْحَاحِ الثَّالِثِ «وَصَوْتٌ مِنَ السَّمَاءِ قَائِلًا هَذَا هُوَ ابْنِي الْحَبِيبُ الَّذِي بِهِ سُرِرْتُ» وَفِي الْإِصْحَاحِ الْخَامِسِ «طُوبَى لِصَانِعِي السَّلَامِ لِأَنَّهُمْ أَبْنَاءُ اللَّهِ يُدْعَوْنَ». وَفِي الْإِصْحَاحِ السَّادِسِ «وَأَبُوكُمُ السَّمَاوِيُّ يَقُوتُهَا». وَفِي الْإِصْحَاحِ الْعَاشِرِ «لِأَنْ لَسْتُمْ أَنْتُمُ الْمُتَكَلِّمِينَ بَلْ رُوحُ أَبِيكُمُ الَّذِي يَتَكَلَّمُ فِيكُمْ». وَكُلُّهَا جَائِيَةٌ عَلَى ضَرْبٍ مِنَ التَّشْبِيهِ فَتَوَهَّمَهَا دَهْمَاؤُهُمْ حَقِيقَةً فَاعْتَقَدُوا ظَاهِرَهَا. وَعُطِفَ وَأَحِبَّاؤُهُ عَلَى أَبْنَاءُ اللَّهِ أَنَّهُمْ قَصَدُوا أَنَّهُمْ أَبْنَاءٌ مَحْبُوبُونَ إِذْ قَدْ يَكُونُ الِابْنُ مَغْضُوبًا عَلَيْهِ. وَقَدْ عَلَّمَ اللَّهُ رَسُولَهُ أَنْ يُبْطِلَ قَوْلَهُمْ بِنَقْضَيْنِ: أَوَّلُهُمَا مِنَ الشَّرِيعَةِ، وَهُوَ قَوْلُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ يَعْنِي أَنَّهُمْ قَائِلُونَ بِأَنَّ نَصِيبًا مِنَ الْعَذَابِ يَنَالُهُمْ بِذُنُوبِهِمْ، فَلَوْ كَانُوا أَبْنَاءَ اللَّهِ وَأَحِبَّاءَهُ لَمَا عَذَّبَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ، وَشَأْنُ الْمُحِبِّ أَنْ لَا يُعَذِّبَ حَبِيبَهُ وَشَأْنُ الْأَبِ أَنْ لَا يُعَذِّبَ أَبْنَاءَهُ. رُوِيَ أَنَّ الشِّبْلِيَّ سَأَلَ أَبَا بَكْرِ بْنَ مُجَاهِدٍ: أَيْنَ تَجِدُ فِي الْقُرْآنِ أَنَّ الْمُحِبَّ لَا يُعَذِّبُ حَبِيبَهُ فَلَمْ يَهْتَدِ ابْنُ مُجَاهِدٍ، فَقَالَ لَهُ الشِّبْلِيُّ فِي قَوْلِهِ: قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ وَلَيْسَ الْمَقْصُودُ مِنْ هَذَا أَنْ يَرُدَّ عَلَيْهِمْ بِوُقُوعِ الْعَذَابِ عَلَيْهِمْ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، مِنْ تَقْدِيرِ الْعَذَابِ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَلَى كُفْرِهِمْ، لِأَنَّ ذَلِكَ لَا يَعْتَرِفُونَ بِهِ فَلَا يَصْلُحُ لِلرَّدِّ بِهِ، إِذْ يَصِيرُ الرَّدُّ مُصَادَرَةً، بَلِ الْمَقْصُودُ الرَّدُّ عَلَيْهِمْ بِحُصُولِ عَذَابٍ يَعْتَقِدُونَ حُصُولَهُ فِي عَقَائِدِ دِينِهِمْ، سَوَاءٌ كَانَ عَذَابَ الْآخِرَةِ أَمْ عَذَابَ الدُّنْيَا [٥٩].ومما يتضح من هذه الشبهة أن ابن عاشور اعتمد في تفنيدها، على أن اليهود والنصارى يعتقدون أنهم مختصون عند الله بمحبة خاصة، وأنهم بسبب هذه المحبة لا يعذبهم الله على ذنوبهم، وقد وقع في التوراة والانجيل التعبير بأبناء الله والتي تم ذكرها، وهذا الاعتقاد باطل، لأن الله تعالى يحاسب الناس على أعمالهم، ولا يحابي أحداً، فقوله تعالى: ﴿فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم .....﴾ [٦٠]. هو استبعاد لهذا الزعم الباطل، وبيان أن العذاب واقع على من يستحقه سواء كان من اليهود أو النصارى أو غيرهم، فالله تعالى لا يعامل الناس إلا بالعدل، ولا يفرق بينهم إلا بالتقوى، فالله سبحانه وتعالى هو المالك المتصرف في ملكه، يفعل ما يشاء، ويحكم بما يريد، وأنه لا شريك له في ملكه ولا في حكمه.

سابعاً: شبهة اعتقاد النصارى أن إبراهيم كان نصرانيا والرد عليها

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [٦١]. قال ابن عاشور (رحمه الله): وَنَتِيجَةٌ لِلِاسْتِدْلَالِ إِذْ قَدْ تَحَصْحَصَ مِنَ الْحُجَّةِ الْمَاضِيَةِ أَنَّ الْيَهُودِيَّةَ وَالنَّصْرَانِيَّةَ غَيْرُ الْحَنِيفِيَّةِ، وَأَنَّ مُوسَى وَعِيسَى، عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، لَمْ يُخْبِرَا بِأَنَّهُمَا عَلَى الْحَنِيفِيَّةِ، فَأَنْتَجَ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ لَمْ يَكُنْ عَلَى حَالِ الْيَهُودِيَّةِ أَوِ النَّصْرَانِيَّةِ إِذْ لَمْ يُؤْثَرْ ذَلِكَ عَنْ مُوسَى وَلَا عِيسَى، عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، فَهَذَا سَنَدُهُ خُلُوُّ كُتُبِهِمْ عَنِ ادِّعَاءِ ذَلِكَ. وَكَيْفَ تَكُونُ الْيَهُودِيَّةُ أَوِ النَّصْرَانِيَّةُ مِنَ الْحَنِيفِيَّةِ مَعَ خلوّها عَنْ فَرِيضَةِ الْحَجِّ، وَقَدْ جَاءَ الْإِسْلَامُ بِذِكْرِ فَرْضِهِ لِمَنْ تَمَكَّنَ مِنْهُ، وَمِمَّا يُؤَيِّدُ هَذَا مَا ذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةَ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [٦٢]. وعَنْ عِكْرِمَةَ قَالَ: «لَمَّا نَزَلَتِ الْآيَةُ قَالَ أَهْلُ الْمِلَلِ: «قَدْ أَسْلَمْنَا قَبْلَكَ، وَنَحْنُ الْمُسْلِمُونَ» فَقَالَ اللَّهُ لَهُ: فَحُجَّهُمْ يَا مُحَمَّدُ وَأَنْزَلَ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ [٦٣]. «فَحَجَّ الْمُسْلِمُونَ وَقَعَدَ الْكُفَّارُ». ثُمَّ تَمَّمَ اللَّهُ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَأَبْطَلَتْ دَعَاوَى الْفِرَقِ الثَّلَاثِ. وَقَوْلُهُ: وَلِكِنْ كانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَفَادَ الِاسْتِدْرَاكَ بَعْدَ نَفْيِ الضِّدِّ حَصْرًا لِحَالِ إِبْرَاهِيمَ فِيمَا يُوَافِقُ أُصُولَ الْإِسْلَامِ، وَلِذَلِكَ بَيَّنَ حَنِيفًا بِقَوْلِهِ: مُسْلِماً لِأَنَّهُمْ يَعْرِفُونَ مَعْنَى الْحَنِيفِيَّةِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِالْإِسْلَامِ، فَأَعْلَمَهُمْ أَنَّ الْإِسْلَامَ هُوَ الْحَنِيفِيَّةُ، وَقَالَ: وَما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَنَفَى عَنْ إِبْرَاهِيمَ مُوَافَقَةَ الْيَهُودِيَّةِ، وَمُوَافَقَةَ النَّصْرَانِيَّةِ، وَمُوَافَقَةَ الْمُشْرِكِينَ، وَأَنَّهُ كَانَ مُسْلِمًا،

فَثَبَتَتْ مُوَافَقَتُهُ الْإِسْلَامَ، وَقَدْ تَقَدَّمَ ذلك فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ، قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُواْ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [٦٤]، وَأَنَّ الْإِسْلَامَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُحَمَّد رَسُول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) هُوَ الَّذِي جَاءَ بِهِ إِبْرَاهِيمُ، وَقالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصارى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَكُلُّ ذَلِكَ لَا يُبْقِي شَكًّا فِي أَنَّ الْإِسْلَامَ هُوَ إِسْلَامُ إِبْرَاهِيمَ [٦٥].ومما يتضح من هذه الشبهة أن ابن عاشور اعتمد في تفنيدها، على ادعاءات اليهود والنصارى بأن إبراهيم كان منهم، فاليهود يعتبرونه أباهم، والنصارى يعتبرونه جد المسيح (عليه السلام) والآية تنفي هذه الادعاءات وتؤكد أن إبراهيم كان موحداً ولم يكن يهودياً ولا نصرانياً، حيث يرى أن هذه الآية من الآيات المهمة في القرآن الكريم، لأنها تبين أصل الدين الحق، وتدعو إلى التوحيد الخالص لله تعالى، وتدحض مزاعم أهل الكتاب، فالإسلام هو الدين الحق الذي يجب على الناس اتباعه، وأن إبراهيم عليه السلام كان رمزاً للتوحيد الخالص.

ثامناً: شبهة أن الإسلام زائد عن ملة إبراهيم والرد عليها

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [٦٦]. قال ابن عاشور (رحمه الله): ثُمَّ لِلتَّرْتِيبِ الرُّتْبِيِّ الْمُشِيرِ إِلَى أَنَّ مَضْمُونَ الْجُمْلَةِ الْمَعْطُوفَةِ مُتَبَاعِدٌ فِي رُتْبَةِ الرِّفْعَةِ عَلَى مَضْمُونِ مَا قَبْلَهَا تَنْوِيهًا جَلِيلًا بِشَأْنِ النَّبِيءِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وَبِشَرِيعَةِ الْإِسْلَامِ، وَزِيَادَةً فِي التَّنْوِيهِ بِإِبْرَاهِيمَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) أَيْ جَعَلْنَاكَ مُتَّبِعًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ، وَذَلِكَ أَجَلُّ مَا أَوْلَيْنَاكُمَا مِنَ الْكَرَامَةِ. وأَوْحَيْنا إِلَيْكَ لِلتَّنْبِيهِ عَلَى أَنَّ اتِّبَاعِ مُحَمَّدٍ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ كَانَ بِوَحْيٍ مِنَ اللَّهِ وَإِرْشَادٍ صَادِقٍ، تَعْرِيضًا بِأَنَّ الَّذِينَ زَعَمُوا اتِّبَاعَهُمْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ مِنَ الْعَرَبِ مِنْ قَبْلُ قَدْ أَخْطَأُوهَا بِشُبْهَةٍ مِثْلُ أُمَيَّةَ بْنِ أَبِي الصَّلْتِ، وَزَيْدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ، أَوْ بِغَيْرِ شُبْهَةٍ مِثْلُ مَزَاعِمِ قُرَيْشٍ فِي دِينِهِمْ. وأَنِ تفسيريه لفعل أَوْحَيْنا لِأَنَّ فِيهِ مَعْنَى الْقَوْلِ دُونَ حُرُوفِهِ، فَاحْتِيجَ إِلَى تَفْسِيرِهِ بِحَرْفِ التَّفْسِيرِ. وَالِاتِّبَاعُ: اقْتِفَاءُ السَّيْرِ عَلَى سَيْرِ آخَرَ. وَهُوَ هُنَا مُسْتَعَارٌ لِلْعَمَلِ بِمِثْلِ عَمَلِ الْآخَرِ، وَانْتَصَبَ حَنِيفاً عَلَى الْحَالِ مِنْ إِبْراهِيمَ فَيَكُونُ زِيَادَةَ تَأْكِيدٍ لِمُمَاثِلِهِ قَبْلَهُ أَوْ حَالًا مِنْ ضَمِيرِ إِلَيْكَ أَوْ مِنْ ضَمِيرِ اتَّبِعْ، أَيْ كُنْ يَا مُحَمَّدُ حَنِيفًا كَمَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ حَنِيفًا. وَلِذَلِكَ قَالَ النَّبِيءُ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): «بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ». وَتَفْسِيرُ فِعْلِ أَوْحَيْنا بِجُمْلَةِ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ تَفْسِيرٌ بِكَلَامٍ جَامِعٍ لِمَا أَوْحَى اللَّهُ بِهِ إِلَى مُحَمَّد (عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَام) مِنْ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ مَعَ الْإِعْلَامِ بِأَنَّهَا مُقَامَةٌ عَلَى أُصُولِ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ. كما وَنَفْيُ كَوْنِهِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ هُنَا بِحَرْفِ مَا النَّافِيَةِ لِأَنَّ مَا إِذَا نَفَتْ فِعْلَ كانَ أَفَادَتْ قُوَّةَ النَّفْيِ وَمُبَاعَدَةَ الْمَنْفِيِّ. وَحَسْبُكَ أَنَّهَا يُبْنَى عَلَيْهَا الْجُحُودُ فِي نَحْوِ: مَا كَانَ لِيَفْعَلَ كَذَا. فَحَصَلَ مِنْ قَوْلِهِ السَّابِقِ، قال تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [٦٧]. وَمن قَوْلِهِ هُنَا: وَما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثَلَاثُ فَوَائِدَ: نَفْيُ الْإِشْرَاكِ عَنْ إِبْرَاهِيمَ فِي جَمِيعِ أَزْمِنَةِ الْمَاضِي، وَتَجَدُّدُ نَفْيِ الْإِشْرَاكِ تَجَدُّدًا مُسْتَمِرًّا، وَبَرَاءَتُهُ مِنَ الْإِشْرَاكِ بَرَاءَةً تَامَّةً. وَقَدْ عُلِمَ مِنْ هَذَا أَنَّ دِينَ الْإِسْلَامِ مُنَزَّهٌ عَنْ أَنْ تَتَعَلَّقَ بِهِ شَوَائِبُ الْإِشْرَاكِ لِأَنَّهُ جَاءَ كَمَا جَاءَ إِبْرَاهِيمُ مُعْلِنًا تَوْحِيدًا لِلَّهِ بِالْإِلَهِيَّةِ وَمُجْتَثًّا لِوَشِيجِ الشِّرْكِ. وَالشَّرَائِعِ الْإِلَهِيَّةِ كُلِّهَا وَإِنْ كَانَتْ تُحَذِّرُ مِنَ الْإِشْرَاكِ فَقَدِ امْتَازَ الْقُرْآنُ مِنْ بَيْنِهَا بِسَدِّ الْمَنَافِذِ الَّتِي يَتَسَلَّلُ مِنْهَا الْإِشْرَاكُ بِصَرَاحَةِ أَقْوَالِهِ وَفَصَاحَةِ بَيَانِهِ، وَأَنَّهُ لَمْ يَتْرُكْ فِي ذَلِكَ كَلَامًا مُتَشَابِهًا كَمَا قَدْ يُوجَدُ فِي بَعْضِ الْكُتُبِ الْأُخْرَى، مِثْلُ مَا جَاءَ فِي التَّوْرَاةِ مَنْ وَصْفِ الْيَهُودِ بِأَبْنَاءِ اللَّهِ، وَمَا فِي الأناجيل من موهم بُنُوَّةِ عِيسَى (عَلَيْهِ السَّلَامُ) لِلَّهِ سُبْحَانَهُ عَمَّا يَصِفُونَ [٦٨].ومما يتضح من هذه الشبهة أن ابن عاشور اعتمد في تفنيدها، على الفهم العميق لمعاني الكلمات في القرآن الكريم، وعلى السياق العام للآيات، وعلى فهمه لدين الإسلام وأصوله، فركز على معنى "الحنيف" في الآية وبيان أنه يعني المائل عن الشرك إلى التوحيد، ورد على المشركين الذين زعموا أنهم على ملة إبراهيم باستناده إلى السياق العام للآيات في سورة النحل، حيث يأمر الله تعالى نبيه باتباع ملة إبراهيم في مقابل ما كان عليه المشركون من الشرك، وذلك لتأكيد أن الإسلام هو الدين الحق الذي جاء به إبراهيم عليه السلام، وأن المشركين قد انحرفوا عن هذا الدين.

الخاتمة

قال تعالى في القرآن الكريم: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [٦٩]، ومن خلال إنهاء هذا البحث أمل بأن أكون قد وفيت هذا البحث حقه، وان أكون شملته بكل العناصر المفيدة، وأتمني أن أكون قدمت بحث مفيداً، وأسال الله أن يوفقنا لما يحب ويرضى. وفي هذه الخاتمة أذكر ما توصلت إليه من نتائج وتوصيات هي كما يلي:

النتائج:

١- إن في ردود ابن عاشور على شبهات النصارى سعة اطلاعه على كتب أهل الكتاب، وإني لأظن أنه يحفظها عن ظهر قلب، فكثيراً ما يورد نصوصا من الأناجيل المختلفة مستخدما إياها للرد عليهم وتبيين تحريفهم وتزييفهم للحقائق.

٢- إن لابن عاشور دهاء في استنباط الرد على شبهات النصارى من خلال الآيات الكريمات، ومن خلال ما فتح الله عليه من الفهم والتحليل.

٣- سلك ابن عاشور في تفسيره منهجاً عظيماً، فجاء محتوياً على مزايا عديدة، تتضمن من العلوم الكثيرة والفوائد الغزيرة، فقد بذل فيه من الوسع والجهد ما يتجلى للقارئ حين قراءته لهذا التفسير، فقد استجمع لهذا الجهد قوتاه العلمية والعقلية، وخبراته التربوية ونظراته الإصلاحية.

التوصيات:

١- أوصي إخواني الباحثين باختيار موضوعات لبحوثهم من خلال تفسير (التَّحرير والتَّنوير) فهناك الكثير من الموضوعات التي تحتاج إلى بحث وتحقيق في مجال التفسير وعلوم القرآن.

٢- أوصي بالعناية بموضوعات الدفاع عن القرآن الكريم من الشبهات التي تبث من أعداء الامة الإسلامية والتي يضلون بـها أهل الإسلام ممن لا يقدرون علـى إضلاله بالشهوات، فينتقلون معه إلـى أسلوب بـث الشبهات وذلك لتشتيت فكر المسلم وزعزعة ثقته بنفسه وبدينه.

المصادر والمراجع

ـ القران الكريم

٢- أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (ت: ٣٢١هـ) جمهرة اللغة، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، ط١، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٧م.

٣- أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (ت: ٣٩٣هـ) تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، ط٤، دار العلم للملايين، بيروت، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

٤- أحمد بن محمد بن علي الفيومي (ت: نحو ٧٧٠هـ) المكتبة العلمية، بيروت، د.ت.

٥- خالد بن عبد الله بن محمد المصلح، شرح كشف الشبهات، دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية، http://www.islamweb.net.

٦- خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس الزركلي الدمشقي (ت: ١٣٩٦هـ) الأعلام، ط١٥، دار العلم للملايين، بيروت، ٢٠٠٢م.

٧- محمد الطاهر بن عاشور (ت: ١٣٩٣هـ) مقاصد الشريعة الإسلامية، تحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

٨- محمد الطاهر ابن عاشور (ت: ١٣٩٣هـ) التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤هـ.

٩- محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت: ٧٥١هـ) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.

١٠- محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (ت: ٣٧٠هـ) تهذيب اللغة، تحقيق: محمد عوض مرعب، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠١م.

١١- محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (ت: ٧١١هـ) لسان العرب، ط٣، دار صادر، بيروت، ١٤١٤هـ.

١٢- محمد محفوظ (ت: ١٤٠٨هـ) تراجم المؤلفين التونسيين، ط٢، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٤م.

١٣- منيع بن عبد الحليم محمود (ت: ١٤٣٠هـ) مناهج المفسرين، دار الكتاب المصري، القاهرة / دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

هوامش البحث

(١) سورة النساء، من الاية: ٨٢.

(٢) محمد الطاهر بن عاشور (ت: ١٣٩٣هـ) مقاصد الشريعة الإسلامية، تحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م، ج١، ص ٢٦.

(٣) محمد الطاهر ابن عاشور (ت: ١٣٩٣هـ) التحرير والتنوير/ المقدمة، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤هـ.

(٤) خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس الزركلي الدمشقي (ت: ١٣٩٦هـ) الأعلام، ط١٥، دار العلم للملايين، بيروت، ٢٠٠٢م، ج٦، ص ١٧٣-١٧٥؛ محمد محفوظ (ت: ١٤٠٨هـ) تراجم المؤلفين التونسيين، ط٢، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٤م، ج٣، ص ٣٠٥؛ التحرير والتنوير/ المقدمة، المصدر السابق.

(٥) التحرير والتنوير/ المقدمة، المصدر السابق.

(٦) مقاصد الشريعة الإسلامية، المصدر السابق، ص ١٥٥-١٥٦.

[٧] مقاصد الشريعة الإسلامية، المصدر السابق، ص ٣١٨.

[٨] سورة الحجر، الاية: ٩.

[٩] مقاصد الشريعة الإسلامية، المصدر السابق، ص ٣١٩.

[١٠] منيع بن عبد الحليم محمود (ت: ١٤٣٠هـ) مناهج المفسرين، دار الكتاب المصري، القاهرة / دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٤٢١هـ – ٢٠٠٠م، ص ٣٣٥ – ٣٣٦.

[١١] مناهج المفسرين، المصدر السابق، ص ٣٣٦.

[١٢] مقاصد الشريعة الإسلامية، المصدر السابق، ص ٣٢٠.

[١٣] أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (ت: ٣٩٣هـ) تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، ط٤، دار العلم للملايين، بيروت، ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م، ج٦، ص ٢٢٣٦.

[١٤] أحمد بن محمد بن علي الفيومي (ت: نحو ٧٧٠هـ) المكتبة العلمية، بيروت، د.ت، ج١، ص ٣٠٣.

[١٥] محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (ت: ٧١١هـ) لسان العرب، ط٣، دار صادر، بيروت، ١٤١٤هـ، ج١٣، ص ٥٠٥.

[١٦] خالد بن عبد الله بن محمد المصلح، شرح كشف الشبهات، دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية، http://www.islamweb.net ، ج١، ص ٣.

[١٧] محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت: ٧٥١هـ) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، ج١، ص ١٤٠.

[١٨] سورة التوبة، من الاية: ٧٩.

[١٩] محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (ت: ٣٧٠هـ) تهذيب اللغة، تحقيق: محمد عوض مرعب، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠١م، ج٦، ص ٢٦.

[٢٠] أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (ت: ٣٢١هـ) جمهرة اللغة، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، ط١، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٧م، ج١، ص ٤٥٢.

[٢١] سورة إبراهيم، الاية: ٢٧.

[٢٢] سورة البقرة، الاية: ١١٦.

[٢٣] سورة البقرة، من الاية: ١٠٥.

[٢٤] سورة البقرة، من الاية: ١١٣.

[٢٥] سورة البقرة، من الاية: ١١٨.

[٢٦] سورة البقرة، من الاية: ١١٨.

[٢٧] التحرير والتنوير، المصدر السابق، ص ٦٨٤.

[٢٨] سورة مريم، الاية: ٩٢.

[٢٩] سورة المائدة، من الاية: ٧٢.

[٣٠] التحرير والتنوير، المصدر السابق، ص ٢٨٠–٢٨١.

[٣١] سورة المائدة، من الاية: ١١٧.

[٣٢] سورة البقرة، من الاية: ٢٥٣.

[٣٣] سورة البقرة، من الاية: ٢٥٢.

[٣٤] سورة البقرة، من الاية: ٢٥٢.

[٣٥] التحرير والتنوير، المصدر السابق، ص ٥.

[٣٦] نفس المصدر، ص ٦.

[٣٧] سورة الانعام، من الاية: ١٦٥.

[٣٨] التحرير والتنوير، المصدر السابق، ص ٧.

[٣٩] سورة ال عمران، من الاية: ٨١.

[٤٠] التحرير والتنوير، المصدر السابق، ص ٧-٨.

[٤١] سورة البقرة، من الاية: ٢٥٢.

[٤٢] سورة البقرة، من الاية: ٢٥٢.

[٤٣] سورة المائدة، من الاية: ١١٦.

[٤٤] سورة المائدة، من الاية: ١١٠.

[٤٥] سورة المائدة، الاية: ١٠٩.

[٤٦] التحرير والتنوير، المصدر السابق، ص ١١٢.

[٤٧] سورة المائدة، من الاية: ٧٦.

[٤٨] التحرير والتنوير، المصدر السابق، ص ١١٣.

[٤٩] التحرير والتنوير، المصدر السابق، ص ١١٤.

[٥٠] سورة المائدة، من الاية: ١٠٩.

[٥١] سورة ال عمران، من الاية: ٥٥.

[٥٢] سورة البقرة، من الاية: ٣٠.

[٥٣] سورة الزمر، من الاية: ٤٢.

[٥٤] سورة الانعام، من الاية: ٦٠.

[٥٥] سورة المائدة، من الاية: ١١٧.

[٥٦] التحرير والتنوير، المصدر السابق، ص ٢٥٧-٢٥٨.

[٥٧] سورة المائدة، من الاية: ١٨.

[٥٨] سورة المائدة، من الاية: ١٧.

[٥٩] التحرير والتنوير، المصدر السابق، ص ١٥٦.

[٦٠] سورة المائدة، من الاية: ١٨.

[٦١] سورة ال عمران، الاية: ٦٧.

[٦٢] سورة البقرة، من الاية: ١٣٦.

[٦٣] سورة ال عمران، من الاية ٩٧.

[٦٤] سورة البقرة، الاية: ١٣٥.

[٦٥] التحرير والتنوير، المصدر السابق، ص ٢٧٤-٢٧٥.

[٦٦] سورة النحل، الاية: ١٢٣.

[٦٧] سورة النحل، من الاية: ١٢٠.

[٦٨] التحرير والتنوير، المصدر السابق، ص ٣١٨-٣١٩.

[٦٩] سورة النحل، الاية: ٩٧.